الاشتراكية الثورية وتحرير فلسطين

«بـعـد كارثة فلسطين حدثت الانقلابات العسكرية في كثير من البلدان العربية. وكـان المفروض أن يتولى هـذا الحكم العسكري إنقاذ فلسطين إلاَّ أن الذي حدث هو غير ذلك. فإن قضية فلسطين في زمـن الحـكـم العسكري قد تعقدت أكثر من ذي قبل، وأن العرب قد بعدوا عن حقهم أضعاف ما كانوا بعيدين عنه في عهود الحكم المدني، وأن قضية فلسطين قد تضاءلت في عقول العرب ونفوسهم، ولم يعد الجيل الجديد الذي نشأ في فترة الحكم العسكري يعبأ بفلسطين أو يعيشها كما كان يعيشها الجيل الذي قبله. والفرق بين العهدين العسكري والمدني هو أن الحكم المدني كان يستحي أن يعلن عن عجزه في قضية فلسطين. وكان لا يعلن عجزه حتى لا يفت في عضد الجيل الجديد يأساً في نفوس الشعب. بينما الحكم العسكري قد أعلن عن عجزه في إنقاذ فلسطين. ألم يعلن كبير الحكام العسكريين العرب أنه ليس هناك مخطط أو تصميم من أجل فلسطين، وأنه ليس بالإمكان على الأقل في الوقت الحاضر إنقاذ فلسطين؟. فإذا كان الحاكم العسكري القوي الذي يحكم ثلاثين مليوناً من العرب يقول هذا القول فما بالك بالدول الصغيرة؟.

إذا كان الحكم العسكري في بلاد العرب لم ينقذ فلسطين ولا هو في طريق إنقاذها، فما هو المبرر في استمراره إذا قبلنا مبدئياً وجوده؟ وهو قد قام مستنداً إلى هذه الدعوة، دعوة استرداد فلسطين من أيدي الغاصبين؟

وما دام الحال كذلك فإنه لم يبق سبب من أجل تنازل الشعب عن حريته وديمقراطيته. لقد ضحى الشعب بحريته وأجاز النظام العسكري بعض الشيء من أجل فلسطين. وهو لا يريد أن يضيع فلسطين وحريته في آن واحد. لذلك فإن

الشعب السوري قد أصبح يحن حنيناً عنيفاً إلى حياة الديمقراطية وإن لم يعمد إلى الوسائل الصعبة لاسترداد حريته[1].

كان هذا هو الجو السائد في قضية فلسطين حتى الشهور الأولى من سنة ١٩٦٧، وفجأة ـ ولأسباب لا مجال لذكرها الآن ـ فإذا العضلات تعرض، والمؤتمرات تعقد، والتصريحات النارية تلقى، والتهديدات بالقاهر والظافر وبأقوى قوة ضاربة في الشرق الأوسط وبتأديب إسرائيل ومن وراء إسرائيل!

وكتبت جريدة «الجمهورية» القاهرية في ٢١/ ٥/ ١٩٦٧ تقول بكل ثقة:

«في ساعات قليلة يمكن أن تسحق إسرائيل، بغير استخدام كافة أسلحتنا في المعركة»!!

وفي ٢/ ٦/ ١٩٦٧ ـ أي قبل الكارثة بثلاث أيام ـ كتب هيكل يقول: «مهما يكن وبدون محاولة لاستباق الحوادث، فإن إسرائيل مقبلة على عملية انكسار تكاد تكون محققة، سواء من الداخل أو من الخارج»!

وقال مسؤول كبير في مصر لوزير الحربية «شمس بدران» قبيل العدوان:

ـ اسمع يا شمس هل وضعت في حسابك احتمال تدخل الأسطول السادس؟

ـ طبعاً.

ـ يعني إذا تدخّل حا تعمل إيه؟

ـ اطمئن، أول طلقة يطلقها أبطّطه[2]!!

وانطلقت الأناشيد الحماسية تقول فيما تقول: ومدفعنا يتحدى القدر!! أي لا يكتفي بتحدي مدرعات إسرائيل في البر، وطائراتها في الجو، بل يتحدى فوق ذلك كله القدر!

---

(١) من بيان للأستاذ جلال السيد أحد مؤسسي حزب البعث، ثم أحد كبار المنسحبين منه بعد ذلك، (دمشق ـ أيلول ـ ١٩٦٥).

(٢) عن «الأنوار» البيروتية في ٨/ ٩/ ١٩٦٧.

وجاء الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧، فلم يجد الشعب العربي وراء الجعجعة طِحْنا، ولم ير وراء الزئير ليثاً! وتبخرت كل التهديدات والتصريحات، وتبددت كل الأماني والأحلام! وبات العرب والمسلمون في العالم كله ناكسي الرؤوس، دامعي العيون، من ذل الهزيمة، وعار الفرار!

ولقد كانت في الواقع أكثر من هزيمة. إنها نكبة، إنها كارثة، إنها انهيار. وأشد ما يؤلم الكريم في هذه الكارثة: أنها جاءت بعد ذلك الجو الهادر الزائر الصاخب الذي وصفنا بعض ملامحه، وجاءت بعد ١٩ تسعة عشر عاماً في التأهّب ليوم الثأر، وغسل العار.

ولكن ـ والأسى يمزق قلوبنا ـ لم تغسل لطخة العار القديمة في جبيننا، بل أضفنا إليها لطخة جديدة.

لقد كانت الخسائر جسيمة ومفجعة لدى العرب، بقدر ما كان الكسب كبيراً وهائلاً لدى إسرائيل. وهو كسب جاءها ورداً بلا شوك يعوقه، وشهداً بلا نحل يمنّعه.

يقدر الرئيس المصري الراحل خسائر الجانب المصري وحده بعد المعركة وإن شئت قل بعد الانسحاب بما يأتي:

١٠٠٠٠ جندي قتلى..
١٥٠٠ ضابط قتلى
٥٠٠٠ جندي أسرى
٥٠٠ ضابط أسرى.
٨٠٪ من معدات القوات المسلحة.

ويقول: كنا مكشوفين أمام العدو.. جبهة القتال مكشوفة.. ما كنش عندنا خط دفاعي غـرب القنال، والمدن مكشوفة، ما كنش عندنا طيارات خالص، منجابه بها طيران العدو لو أراد أن يعتدي على مدننا بعد الكارثة التي حلّت بالطيران!».

الثوريون يحملون تبعة هزيمة ١٩٦٧:

من المسؤول عن هذه الهزيمة المروعة؟

إن المسؤول ـ في الدرجة الأولى ـ هو الأنظة الثورية العربية، التي قادت المعركة وأحجبت نارها، وخاضتها بجيوش فرغتها من «الروح» وشعوب حطمت فيها القيم، كيف لا وقد رأينا الثوريين مزقوا الوحدة، وطاردوا الأخوة، ووأدوا الحرية، ونشروا الميوعة، وقهروا الإيمان، وبلبلوا الفكر، وعطلوا العقل، واكتفوا بالتهويل والشعارات!

لست أنا الذي أقول هذا، بل يقوله كثير من الثوريين بعد أن هزتهم النكبة أو النكسة هزاً ـ إلى حين ـ جعلهم يعترفون بكثير من الحق، ويحتجون على كثير من الباطل: باطل الثوريين أنفسهم.

لقد قال عبد الناصر عن نفسه في خطاب التنحي المشهور في ٩/ ٦/ ٦٧: أنه المسؤول عما حل بمصر من دمار وعار، وعلى أساس هذا قرر التخلي عن المسؤولية.

وكتب هيكل وجنبلاط وصلاح البيطار وغيرهم من الثوريين يكشفون بصراحة عن قصور الثورية العربية وعجزها عن القيام بواجبها في المعركة المصيرية. وسنعود إلى كتاباتهم حين نبحث عن أسباب الهزيمة.

القوى اليسارية تحمِّل البعث السوري تبعة الهزيمة:

النظام الوحيد الذي استقبل الهزيمة بصفاقة وتبجح وعدم اكتراث، وفقدان أي شعور بالمسؤولية، هو نظام حكم البعث السوري، الذي أعلن أن إسرائيل لم تنتصر، وأن عدوانها قد فشل، لأنها كانت تريد إسقاط الأنظمة الثورية التقدمية، ولم تفعل!! فلا هزيمة إذن للعرب، ولا نصر لإسرائيل!

ولكن كل القوى، حتى اليسارية نفسها ـ ردت عليها هذا المنطق الأعوج

السفيه، وحملتها عار الهزيمة النكراء، وتسليم الجولان بغير قتال، وإعلان سقوط القنيطرة قبل أن تسقط.

في ١٩٦٨ أصدر القوميون العرب بياناً قالوا فيه:

«منذ اليوم الأول للهزيمة العسكرية بدأت أوساط الحكم تعلن أن الهدف الأساسي للعدوان هو إسقاط نظام الحكم الثوري في دمشق... ومن هذه الفرضية الهزيلة وصل الحكم إلى سلسلة من القناعات أهمها:

١ ـ ما دام القصد الأساسي هو إسقاط نظام الحكم في سوريا فإن العدوان قد فشل في تحقيق مراميه، وبالتالي فإن ما قدمه البعث لهذه الأمة يتمثل في مقدرته على الحفاظ على نفسه، بهذا المعنى فإنه قد حقق انتصاراً ضخماً.

٢ ـ ما دام القصد إسقاط البعث الحاكم، فإن أي محاولة تستهدف إذابة البعث في مجموعه هي خطوة إلى الخلف ترضي إسرائيل.

من السخافة أن نناقش هذا المنطق، فهو يدحض نفسه بنفسه، ويظهر ما يخفيه من مقاصد وتحليلات ذاتية.

غير أن المواطن لا يستطيع إلاَّ أن يتساءل بسخرية: أفلا تخاف إسرائيل أكثر لو كان الحكم أكثر تقدمية وأكثر ثورية[1]؟ هل يزعج إسرائيل أن يكون الحكم في سوريا بعيداً عن الجماهير أم موثوقاً منها؟ والشعب قريباً من الحكم ملتفاً حوله أم بعيداً عنه يناصبه العداء؟... إننا نعتقد أن إسرائيل تعلم حقيقة الهوّة التي تفصل بين هذا الحكم والجماهير، ونعتقد أن إسرائيل لا تكره حكماً ضعيفاً معزولاً.

«ووجدت الفئات التقدمية نفسها وجهاً لوجه مع واقع سوريا المحزن، سوريا التي يعلق عليها العرب الآمال الكبار في محو آثار العدوان وتصفية الوجود الصهيوني والتصدي للاستعمار.

---

(١) أقول: بل ستزداد اطمئناناً وأمناً، بما عندها من معرفة عميقة وخبرة طويلة بالأنظمة التقدمية الثورية!!

١ ـ شعب مزقته الأحقاد وأكلته التكتلات الطائفية والعنصرية التي غذاها البعث منذ استلامه السلطة عام ١٩٦٣ حتى أضحت اليوم ركيزة أساسية من مرتكزات حكمه. إن شعباً يمثل هذه الصورة من التمزق يصعب عليه أن يواجه تحديات بمستوى التحديات التي تواجه شعبنا العربي، فالشرط الأساسي لأي عملية مجابهة خارجية هي انصهار وطني، وحدة وطنية جامعة، اندماج قومي كامل، لا يستثنى من هذه الوحدة إلاَّ عملاء الاستعمار وأذنابه.

٢ ـ جماهير بعيدة، بل مبعدة، عن الاشتراك جدياً في تقرير مصيرها وممارسة حريتها بعيداً عن تسلط الأجهزة وحزب الوصاية والقهر.

٣ ـ مؤسسة عسكرية نجح البعث في تمزيق انضباطها، وضرب الكفاءة الفنية لقيادتها، لقد تمزقت الحجب الواهية والمفاهيم البالية التي تستر بها كل من أخفى تآمره وتقاعسه عن الشعب، وعلمتنا فضائح قادة الطيران وفضائح سقوط القنيطرة والجبهة السورية، أن لا سرّ عسكري إلاَّ تحت ظل قيادة عسكرية موثوقة، والثقة لن تعود ما دام الحساب لم يقع والجبناء والخونة لم يلقوا جزاء عادلاً بعد. إن الإصرار إعلامياً على أن مأساة يوم ٥ حزيران هي عملية انسحاب، لا يجدي في إقناع الناس أن ما رأوه لم يكن هزيمة نكراء أصيب بها جيشنا، والإصرار على إنكار الهزيمة لا يساعد أبداً على إعادة الثقة إلى المواطنين الذين عاشوا الهزيمة بمرارة قاتلة».

وبمناسبة ذكرى الجلاء في سوريا أصدرت قيادة البعث القومية بياناً في بيروت ـ ١٧/٤/١٩٦٨.

القيادة القومية تطلب محاكمة البعثيين القطريين:

إن قوى الشعب المناضلة في القطر العربي السوري لن تكون قادرة على الإسهام الفعّال بإزالة آثار العدوان ومجابهة إسرائيل في ظل الحكّام الحاليين طالما أنهم لم يحاربوا وقت الحرب، بل هربوا من المعركة، وتخلوا عن الدفاع عن أرض الوطن لحماية حكمهم الثوري الراهن، وطالما أنهم ما انفكوا إلى يومنا هذا

يسرحون ضباط الجيش ويرهبون الشعب ويفتتون قواه الوطنية، ويغذون النعرات الطائفية ويلاحقون المناضلين الأحرار ويزجون بالألوف منهم في السجون والمعتقلات ويمارسون معهم أبشع وسائل التنكيل والتعذيب. فكل ذلك يجري على أيديهم خلال الوقت الذي نحن أحوج ما نكون فيه إلى الجندي العادي، فضلاً عن الضابط المدرب. وإلى تكتيل كل القوى وتعبئتها لا تفتيتها وضربها، وإلى إطلاق فعالية الجماهير النضالية، لا كبتها وإرهابها. ومن هنا فإن النضال في سبيل الخلاص من هؤلاء الحكام هو في حقيقته جزء من النضال في سبيل الحرية والديمقراطية الشعبية ولتحقيق خطوات وحدوية مماثلة كميثاق ١٧ نيسان. وبعيدة عن أساليب المزايدة وأغراض الكسب الدعائي الرخيص. وليكن شعارنا في هذه المرحلة:

١ ـ محاكمة المسؤولين عن هزيمة حزيران المنكرة وعن تسليم القنيطرة والجبهة السورية الحصينة بلا قتال.

٢ ـ إطلاق حرية العمل الشعبي وإلغاء قوانين الطوارىء والمحاكم الاستثنائية وأساليب الاعتقال الكيفي ووسائل التعذيب والإرهاب ومنع تدخل المخابرات العسكرية في شؤون المواطنين وإقامة ديمقراطية شعبية حقة.

٣ ـ إعادة الضباط المسرحين إلى الجيش وجعل الجيش جيشاً وطنياً قادراً على مواجهة مسؤولياته الوطنية والقومية وتقوية انضباطه وتدريبه ورفع مستواه الفني.

٤ ـ تحقيق الوحدة الوطنية في ظل الجبهة القومية الشعبية وتعبئة قوى الشعب تعبئة كاملة لمحو عار الهزيمة ومجابهة خطر إسرائيل والاستعمار الجديد.

وأصدرت «الجبهة الوطنية للقوى التقدمية»[1] في سوريا في ١٥/٥/١٩٦٨ ميثاقاً وطنياً جاء فيه:

---

(١) تشكلت هذه الجبهة في سوريا، في شتاء ١٩٦٨، من الكتل السياسية التالية:
١ ـ الحزب العربي الاشتراكي الديمقراطي (جماعة أكرم الحوراني).
٢ ـ الاتحاد الاشتراكي العربي.
٣ ـ حركة القوميين العرب.
ثم انضمت إليهم كتلة قيادة البعث القومية (أنصار أمين الحافظ)... ثم لم تلبث أن انفرطت. =

إن السياسة التي اتبعها الحكم السوري تجاه قضية فلسطين، وبخاصة قبيل الحرب، كانت مثالاً صارخاً على الأسباب المدمرة في مواجهتها. فلقد كان التعارض كاملاً بين الشعارات التي طرحها هذا الحكم في مباشرة حرب التحرير، وفي الحرب الشعبية، وبين طبيعة هذا الحكم وعزلته عن الشعب وبعده عن أي إعداد فعلي وحقيقي. إن ذلك الحكم كان يستنفر ويتحرش الحرب ولكنه بموازاة ذلك ماذا كانت إعداداته لمواجهة احتمالات اندلاع الحرب؟

مزيد من عمليات تصفية الكفاءات العسكرية، وإضعاف الروح القتالية للجيش، والتسريحات الجماعية للضباط، بدلاً من حشد الطاقات والكفاءات والقوى لمواجهة العدو.

الإصرار على التسلّط والتفرّد في الحكم والرفض لإقامة أي شكل من أشكال الوحدة الوطنية لتعبئة طاقات الشعب للصمود والكفاح.

وهكذا كان الشعب ممزقاً ومقهوراً عند نشوب الحرب، وكانت سورية أشبه بجبهة مشلولة ومفتوحة أمام قوات العدو. واكتفى الجيش بالقيام بمناوشات محدودة على الحدود بواسطة بعض القطعات العسكرية الاحتياطية. ثم ما لبث أن انسحب تاركاً الحدود بغية «حماية الثورة» عند أول هجوم من القوة العسكرية الإسرائيلية.

إن هذا الحكم مسؤول عن هزيمة سوريا على الأقل، وعن سقوط جبهتها في يد الأعداء من غير قتال جدي، وعن إبقاء سوريا على الحالة التي نراها من التمزّق والعجز.

إن لهزيمة حزيران عواملها البعيدة المتعلقة ببنيان الحياة العربية وهيكلها، والتي يمكن تلخيصها بعاملين رئيسيين هما التخلف والتجزئة. إلاَّ أن لهذه الهزيمة أسبابها المباشرة في نقاط القصور والفساد والضعف في بنيان الأنظمة العربية الثورية أو المسماة بالثورية.

إن المعركة التي نشبت لم يكن يعوزها، من الجانب العربي، العتاد

والسلاح، ولم يعوزها استعداد جماهير الشعب العربي كله للكفاح والتضحية، وإنما أعوزتها القيادات القادرة على توحيد القوى وتعبئة الطاقات، وأعوزتها الخطة الصحيحة في المواجهة والعمل والاستراتيجية الواضحة.

إن الثغرات الأساسية والمباشرة، التي نفذت منها الهزيمة، كانت في نقائص النظم العربية التي تصدت للمواجهة ومساوئها، إن تخاذل القيادات العسكرية البيروقراطية وترفها وترهلها وفسادها، إن إبعاد الجماهير عن المشاركة الجدية وعزلها عن تقرير مصايرها وعن فرض إرادتها على النظم، كل ذلك جاء ليقرر الهزيمة ويوقع النكسة».

وهكذا تتحمل الأنظمة الثورية الاشتراكية مسؤولية الهزيمة الكبرى التي قصمت ظهر العرب وحنت رؤوسهم وأذلت أعناقهم منذ ١٩٦٧ حتى اليوم.

ورغم مضي أكثر من أربع سنوات على الهزيمة، فإن الموقف يزداد سوءاً، إسرائيل تتصرف في كل الأراضي التي احتلتها تصرف المقيم فيها أبداً. تبني مستوطنات في الجولان، وتقوم بحفريات وتغييرات متواصلة تغير بها معالم القدس العربية الإسلامية، وتحول عشرات الألوف من سكان غزة عن مساكنهم إلى سيناء، وتبني مستعمرات ومساكن في الأراضي العربية المحتلة.

ونحن ما زلنا نحلم بحل سلمي يأتي عفواً صفواً، يرد إلينا بجرّة قلم، ما احتله العدو بحد السيف. وكل أملنا وعملنا وتفكيرنا ـ معشر الثوريين العرب ـ هو طرد إسرائيل من المناطق الجديدة التي احتلتها، أي إزالة آثار عدوان ١٩٦٧ وإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه في ٤/٦/٦٧:

معنى هذا أن حوالي ٢٠ سنة من عمر الأمة العربية قد ضاعت كلها هباء. فقد قضتها في التأهب والاستعداد منذ هزيمة ١٩٤٨، ثم تبخر هذا كله في ستة أيام أو ست ساعات في ١٩٦٧!